بنية التوتر في قصيدة "عنب الرماد" للشاعرة ربيعة جلطي

أ/ آقطي نوال
جامعة – ورقلـــة–

مدخــل:

يعتبر التركيز على بنية التوتر وليد الحلم المحموم الذي يراود الشاعرة في القصـــيدة، ولعله ترجمان للعواصف التي تطوق الواقع والأمواج المعرفية للذات.

إنه حصار العالم المعيشي الذي يدفع للاستحمام بمياه الشـــعرية لـــذلك وجـــب الوقوف على العتبات الدلالية في القصيدة .

عتبة العنوان :

يشكل العنوان في قصيدة عنب الرماد أيقونة رئيسة تتجاوب مع فاعلية القصيدة؛ ولأن مساءلة العنوان في توجيه القراءة أصبحت من الضرورة،ذلك لأنه بمثابة «الـــرأس للجسد»[1] كما أنه « شديد الفقر على مستوى الدلائل ،وأكثر غنى منه (من النص)علـــى مستوى الدلالة». [2]

وينفتح عنوان عنب الرماد على مؤشري "العنب والرماد" ،ويتركب مـــن خبـــر لمبتدإ محذوف تقديره هذا ومضاف إليه .والإضافة تظهر أن العنب بعض من الرماد لأن هناك حرف جر فاصل بين المضاف والمضاف إليه ، وبغيابه عن البنية السطحية يتـــوتر السياق.

ولجوء الشاعرة إلى المضاف إليه محاولة لمعرفة ذاتها بملاحقة ثمرة العنب غير أن هذه الثمرة تلتصق بالرماد وهو الحطام المترجم للإحساس العميق **بهوية هذا العنب.**

---

[1] محمد مفتاح : دينامية النص تنظير وإنجاز ،المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان،ط1،1990،ص72.
[2] محمد فكري الجزار :العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي،الهيئة المصرية للكتاب ،مصر ،ط1،1998،ص23.

الرماد هو بقايا لنار قد ألهبت كيان الشاعرة وفي اللهب احتراق وثمـرة بقايـا الاحتراق تضيء التوتر المتنامي عبر مدرات القصيدة .

تقول الشاعرة:

سارية فوقها النار والحطب

على كتفي الزيوت

وعليها الشهب الحارقة.

سارية[1]

الانقلاب ينتج رمادا يبقى صورة طافية على سطح القصيدة ناطقة ترشد القارئ إلى مدلولها.

وتأتي اللوحة اللونية نتيجة حتمية لدوال العنونة إنها تجمع بين ثلاثيـة الأسـود والأبيض والأزرق والتي تتبنى الرمادي نتاجا لها لتلمس هموم الحياة وتجاعيدها.

فإذا كان البياض رمز لكل ما هو جميل فامتزاجه بالسواد« المرتبط في حد ذاته بالرماد المتخلف عن الحريق»[2]هو بمثابة «لا المضادة لنعم »[3] أي لافتة منددة بالصمت وداعية للرفض ناقمة على هذا الوجود.

الضدية اللونية ترجمان لهذا التوتر السابح في عمق النص والمتأفف من أبجديات العصر. أما اختيار الأزرق محاولة للاستحمام من عوالق التوتر والاضطراب وبحث عن الاتزان.[4]

لا تغيب الفاكهة عن العنوان إلا وتظهر في المتن بهوية أخرى إذ يتحول العنب إلى تفاح، وكأن الشاعرة تمارس نوعا من اللعب والمراوغة، فتغير الصورة الذهنية لدى المتلقي وتكسر أفق توقعاته تاركة فجوة توتر فاصلة بين الصورتين ، لكن سـرعان مـا نكشف تقاربهما في المعادلة اللونية والذوقية والوظيفية (تنشيط الجسم والمساعدة علـى الهدوء ومنع الإحساس بالتوتر).

تقول الشاعرة :

---

[1] ربيعة جلطي :ديوان من التي في المرآة ،دار الغرب للنشر والتوزيع ،الجزائر ، دط،2003، ص20.

[2] أحمد مختار عمر :اللغة واللون،عالم الكتب ،القاهرة ، ط2 ،1997، ص201.

[3] م ن، ص195.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص198.

يدك مروج الشمال

تفاحها ،أبقارها ومالها

وقطاراتها والأشواق،[1]

أما ظل العنوان الأخير فهو في استحضار الحيوان المتوافق مع مدلوله(العنوان) (الذئب ـــ الأفعى ـــ الطير ـــ الهدهد).

تخبأ الشاعرة الطير خلف العمى إذ تقول:

وحش،طائر متبختر،

ملتو

أعمى[2]

إن العمى المنسوب للطير صفة دائمة لدى الأفعى الملتصقة بالأرض ووضعهما في إطار واحد هو ربط للذات بالانفصام والتمزق الموحش وقذف بها في صحراء الموت.

الذئب يحمل اللون الرمادي ويعبر عن الواقع الصعب المصارع للذات في حين يظل الهدهد رمزا للكشف عن خفايا المرأة (قصة بلقيس)لذلك يرتبط بالمحنة:

يا هدهد المحنة،

تتماسك بالكاد عن غناء

أم البكاء ! [3]

لكأن المحنة تلتصق بالبكاء على هذا الزمن الطاعن للروح والمغيـر للجمـال والمثير للقلق. هكذا يفرز التواصل بين العنوان والحيوان طيرا أعمى وذءبا خشبي وهدهد محنة.

– توتر المضمون:

تتخذ الشاعرة من بنية التوتر محورا تلتفت حوله القصيدة ،غارقـة فـي بركـة الانفعالات الناشئة عن الثنائيات الضدية التي« تعد ذات أهمية في خلق الشعرية من كونها

---

[1] ربيعة جلطي :ديوان من التي في المرآة ، ص22.
[2] ربيعة جلطي :من التي في المرآة ، ص20.
[3] م ن ، ص23.

مصدرا للفجوة :مسافة التوتر »[1] إنها تحاول لفظ مستنقعات الواقع،فالصراعات الحياتية تجد ثقوبا تتنفس من خلالها داخل البنية النصية.

تبدأ القصيدة بقول الشاعرة:

بين الجوانح غضب

غضب بين الجوانح

غضب. [2]

إذ تجرح البنية بتخذير عصب الجملة وانزلاق المفاصل، فالجملة الظرفية تتأخر بعدما كانت مقدمة.

خبر محذوف +مبتدأ مؤخر

مبتدأ محذوف +خبر

فلعبة الوجود والعدم ظاهرة في البنية اللغوية ،وتشويش الرتبة يعد توترا .

وحين تعالج البنية الدلالية للمقطع تجد تسربات الغضب إلى الجوانح أقوى في الجملة الأولى للاعتناء بالدواخل (بين الجوانح) ؛ أي أن الغضب احتل الجوانح واستوطن بينها في حين يعد الغضب في التركيب الثاني ومضة غازية حاليا ثم يتأكد غزوه أخيرا في قول الشاعرة: **غضب**.

و انطلاقا من البنية التكرارية يتضح تأكيد التوتر؛ لأن الإعادة دليل اضطراب وبما أنه (التكرار) «المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان»[3] فالاستجابة لها تكون فعالة؛ لأنها محفورة في الذاكرة الذهنية.

فتكرار وتواتر إشارة الغضب عبر منحى القصيدة يسقط مطرا باكيا عبر سطورها فتلقيه محقونة بإبر الحركة المتسارعة ،إنها اللفظة المحورية التي تتأسس عليها البنية التواترية وتتمفصل عندها باقي المدلولات وتتجاوب إليها لتتلاقح معها مستمدة منها الحركة والتوثب والنهوض ؛وهي رمز للتجديد ورابط بين متناقضين ،فالبنية الاسمية دالة على الثبات ومدلولها مع تكرارها دالين على النهوض والثورة والاشتعال.

---

(1) بسام موسى قطوس :إستراتجية القراءة ،التأصيل والإجراء النقدي ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط1،2002، ص147

(2) ربيعة جلطي :من التي في المرآة ،ص19.

(3)مصطفى عبد الرحمن :ظاهرة التكرار في الفنون الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ،1998،ص11.

وربما يكون الغضب رمزا للتغير والرفض والابتعاد عن طابع الوجود الإنساني ،أو قل هو بريد اللاشعور أين تبوح الذات برواسبها ومن هذا يمكن القول أن القصيدة تفريغ لمتعلقات الزمن.

تقول الشاعرة :

جبل يقترب من المدى متعثرا

يتفتت في يدي

جبل[1]

إن اقتراب الجبل المتماسك الراسي يعبر عن ثبات واستقرار، لكن تعليقه على مشجب التعثر يجسد درجة حرارة التوتر فتفوح رائحة الانهيار «هكذا ما إن يتم إسقاط حالة الثبات ... حتى تبدو الحالة الثابتة متوترة مما يؤدي إلى نشوء توازن بين الحركة الكامنة والمقاومة»[2] هذا التوازن يتوقف عند الجوهر الوجودي للإنسانية

يتفتت في يدي[3]

و يؤدي إلى محاولة لاستبطان العمق الإنساني والبحث عن خفايا الوجود.

ويلعب التضاد دور المضخة التي تبرهن على الحضور والرفض ومحاولة التغيير.

تقول الشاعرة :

ذئب من خشب

يعوي،

في مغطسه يمسخ أفعى

زجاج أسود في رأسي ينشطر

ذئب[4]

تتحول الروح إلى مادة وتهرب الألوان من أثوابها ،وتستحيل الأشياء شظايا محطمة وينكسر نظام الجاذبية الأرضية موقعا وثيقة الحالة النفسية التي تعيشها الذات .

إنها بؤرة التأزم والتنقل بين جسور الغربة والضياع.

---

(1) ربيعة جلطي :من التي في المرآة ،ص19.

(2) محمد علي الكندي : الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي) دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ،لبنان ،ط1، 2003 ،ص346

(3) م ن ،ص19.

(4) ربيعة جلطي : من التي في المرآة ،ص19.

وهو ما يولد طاقة انفجارية صارخة (غضب ــ يعوي ــ الجارف ــ رعد ــ ملعلع ــ ارتابه ــ ملتو ــ زلزلة) طاقة نابعة أيضا عن ترسانة الصورة الفنية التي« تسمح ... باستقطاب الواقع المعاصر في طبقاتها لخفية ودلالته الغامضة » . [1]

تقول الشاعرة:

سارية فوقها النار والحطب
على كتفي الزيوت
وعليها الشهب الحارقة ..
سارية
في الهاوية ظلي خببا
ظلي في الهاوية
أمامه رعد جهنمي ،ملعلع، أرتابه،
غضب
وحش،طائر متبختر،
ملتو
أعمى [2]

إن الطاقة الاسمية لها ميزتها في تجسيد مترادفات الحياة ،فتهد السارية واضح يضرب السكون بسيفه وينشر الحركة التي تولد مع السكون والقطبية المتجاذبة تلامس الدال والمدلول ،فينبش قبر العدم بحثا عن الوجود . إنه غضب يبحث عن وتد اليقين ويريد تمزيق بردة النمط المعاش

وإلى جانب تلك الطاقة تضيف الشاعرة متتالية عددية من الأفعال المضارعة التي تزيد من حدة الانفعال والتوتر وتبرهن عن رغبة في التحرر من تبعية الواقع المشؤوم ،إنها تصنع مرفوضات الذات وتأففها ؛كونها محرومة من لذة الوجود بسبب الإقامة الجبرية للتعفن والعبثية .و ذلك يشكل استخلاصا مفاده أن النص يجمع بين متناقضات تحقق أرضية يخرج منها التنوع الدلالي المكثف.

[1] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،ط1،ص258.
[2] ربيعة جلطي : من التي في المرآة ،ص20.

ويلحظ القارئ اضطراب في البنية الدلالية لهذه الأفعال (يقتــرب ــ يهــرب ــ يتفتت ــ ينشطر ــ يتماسك) وهذا التضاد الفعلي يربط الأنساق ربطا متجانسا يتجــاوز النمط المألوف، إنه يصنع لعبا دلاليا ومراوغا.

هذا التفجير الدلالي للحركة يجعل الأفعال تطفو على السطح في بنيــة موحيــة متوالية ارتمت الشاعرة بين ذراعي (المــيم) لتغمر ذاتها بتلك الحرارة الناجمة عن الانضمام مواجهة مناشير السقوط والانهيار دون أن تسقط من ذاكرتها ألم الحفر والانشقاق الذي أحدث هذا التهدم (ب) كما حاولت البروز (أ) بوجه آخر إنه النهوض والتماسك والاستقرار للبعث المتجددو الفكاك من قبضة الزمن (ي ــ ل ــ ر)

تلك أثاره،
ساقط على كون من الغبار
أو حطام نجم ،
غضب
في انجرافه هلع جاف
أم فجأة الكسوف الأزرق
أم تقاطيع الزلزلة!؟ [1]

فالإشارات (التساقط ــ الحطام ــ الغبارــ الزلزلة ــ الانجراف) تجسد مناخــا محبطا يهرب فلسفتها الحياتية من ركام فلسفة تقف على دالــين الأول الغضــب (التغيــر والثورة) والثاني الانهيار(الاستسلام)وتلك بنية توتر تتكئ على نظــام الحيــاة الموشــح بالأوجاع والمرصص بصراع الذات في سبيل النهوض والاستعلاء .

والتوتر يشهد على قطار الزمن العائد للخلف والمغاير للقيم لكن الشاعرة تحاول تمزيق الأقمطة والأكفان لتتابع التدافع والانسياب إذ تقول:

غضب ،
يدك مروج الشمال
تفاحها ،أبقارها ومالها
وقطاراتها والأشواق ،

[1] المصدر السابق، ص21.

يهرب الثلج من بياضه

والبحر من مياهه

إلى الجحيم من جنه. [1]

إنه البحث عن تشكيل هوية جديدة تخالف المألوف وتهرب من أسر أسوار التقليدية والاستناد إلى سلطة القرار بإعلان الرفض ورفع لافتة اللا قبول مبتغى الشاعرة لذلك تطعم النص بحمولة مكانية تثقل كاحله وتمثل الذاكرة التي تتعايش مع الحاضر (الأفعال المضارعة).

و الصراع الكامن تحت قشور المكانية يشكل حركة داخلية مرتدة من السلب والإيجاب ،مزيحة الستار عن تناقضات الزمان الصدئ.

وهذا ما يرفع نبض النص فيتنامى ويتقدم إلى مشارف الخاتمة.

تقول الشاعرة:

يا قلبي

يا طائر الحديد أو المطر،

يا هدهد المحنة،

تتماسك بالكاد عن غناء

أم البكاء !

طعنة طعنة

غضب أحمق ،أحمق

عليه ،أم علي

علي ،أم علية اللعنة!؟. [2]

إنها قوة فاعلة (غضب) وذات منفعلة (الإنسان)وتوتر جامع بين القوى المحركة والمعيقة فالخطاب ينتقل من النقيض إلى النقيض ويعرض التوتر الحاصل بينهما؛ لذلك ظهرت البنية التساؤلية في الخاتمة

علي ،أم علية اللعنة!؟. [3]

---

[1] ربيعة جلطي : من التي في المرآة ،ص 22.
[2] المصدر السابق ،ص23.
[3] م ن،ص23.

لتبعث شرارا من القلق الذي يجتاح الذات المهددة ولتنبه القارئ أن العيب لــيس في زمانه فحسب ولكنه متصل بذاته أيضا .

إن الوقوف على بنية التوتر فسح المجال للنتاج الآتي :

ـــ المفارقة في القصيدة تبوح بجدل الواقع والذات.

ـــ إن الشاعرة لها فضاء خصوصي تنطلق منه وتعود إليه لتثبت أصالتها.

ـــ استخدام الأصوات المجهورة يبرز حالة التأزم التي تصيب الذات .

ـــ تناسل الأصوات الذلقية المتميزة بالسلاسة يهدف إلى محاولة كســر البنيــة التوترية

ـــ تواري الشاعرة خلف الصورة يصعد من البنية التوترية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،ط1

2-أحمد مختار عمر :اللغة واللون،عالم الكتب ،القاهرة ،ط2 ،1997،ص.201

3-بسام موسى قطوس :إستراتجية القراءة ،التأصيل والإجراء النقدي ،دار الهدى للنشر والتوزيع ،الجزائر ،ط1،2002

4-ربيعة جلطي :ديوان من التي في المرآة ،دار الغرب للنشر والتوزيع ،الجزائر ،د ط،.2003

5-محمد علي الكندي : الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث (السياب ونازك والبياتي) دار الكتاب الجديد المتحدة ،بيروت ،لبنان ،ط1، 2003.

6-محمد فكري الجزار :العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي،الهيئة المصرية للكتاب ،مصر ،ط.1998،،1

7-محمد مفتاح : دينامية النص تنظير وإنجاز ،المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان،ط.1990،1

8-مصطفى عبد الرحمن :ظاهرة التكرار في الفنون الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ،1998.